أولًا: المساواة بين الناس فى أصل الخلق:

إن النـاس جميعا بمقتضى العقيدة الإسـلامية التوحيدية عباد لرب واحد، فهم جميعا فى مرتبة العبودية سواء أمام الله تعالى؛ فالإيمان بالله الخالق وعبادته والتقرب إليه حق لجميع البشـر، ولا سلطان لأحد من الناس على غيره فيه، ولا وسـاطة بين الخالق والمخلوق، فالجميع أمام الله متساوون، وبينه وبينهم باب مفتوح فى كل زمان ومكان؛ قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[سورة البقرة].

والمساواة فى المنظور الإسلامى لا تعنى – بحال من الأحوال – القضاء علـى الاختلاف أو التمايـز بين الناس؛ إذ الاختلاف سـنة كونية من سـنن الله فى خلقـه، وهو حقيقة واقعة فى الخلـق، ولا يمكن محوها أو التغافـل عنها؛ قال الله عز وجـلَّ: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾ [سـورة هود].

فالاختـلاف بين الخلق شـكلًا ومنهجًا إرادة لله تعـالى فى خلقه، وقد نصـت علـى ذلك آيـات الذكر الحكيم؛ حيـث يُقـرر الله تعالى واقع اختـلاف مناهج الخلق وشـرائعهم بقوله تعـالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ

فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾﴾[سورة المائدة].

أما من حيث اختلاف الشكل فقد عدَّ القرآن الكريم ذلك من آيات الله تعالى الداعية إلى النظر فى آيات الكون للتفكر والتدبر؛ ففيه تحريك للعبرة، وتذكير بالنعمة، وحفز للفكرة، وذلك فى قوله سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾﴾[سورة الروم].

ومن ذلك نستطيع القول بأن الله أراد أن تتنوع المناهج والأسس، وأن يَصُبَّ جميعها فى غاية واحدة وهدف واحد، وهو تحقيق الخير للإنسان والإعمار للكون، قال تعالى: ﴿ وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ أَيْنَ مَا تَكُونُوا۟ يَأْتِ بِكُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٤٨﴾﴾ [سورة البقرة].

وعلى ذلك فالمساواة تعنى العدالة، والعدالة تكمن فى عدم التفرقة بين إنسان وآخر سواء فى النظرة أم المعاملة على أساس خِلقى يخرج عن فعل الإنسان واختياره.

وعليه فإنه يجب أن تطبق مفاهيم المساواة فى الإنسانية فى إطار من احترام الاختلاف والتمايز بين الناس، وعدم الاعتداء على هويتهم الذاتية أو محاولة مسخها أو محوها.

كما يجب أن نفهم الاختلاف على أنه حق إنسانى يجب احترامه، وإن محاولة أَطْرِ البشر جميعًا على نموذج مُعَيَّن بمنطق القوة – لمجرد

اقتناعنا أن هذا النموذج أو ذاك هو الأصلح للحياة – يُعَدُّ اعتداءً صارخًا على حقوق الإنسان.

ولا غـرو فـى ذلك فقد وردت نصـوص الوحيين (الكتاب والسـنة) صريحة بمساواة البشر جميعًا من حيث أصل الخِلْقة.

١ - حديث القرآن عن المساواة فى أصل الخلق:

فأمـا حديث القرآن العظيم عن تسـاوى الإنسـانية جميعًا فى أصل الخلق، فقد تكرر فى آيات كثيرة، ومنها:

أ – قولـه تعـالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ ﴾ [سـورة النسـاء]، قال الإمام الطبرى عند تفسيره لهذه الآية الكريمة: «وصف تعالى ذكره نفسه بأنه الْمُتَوَحِّدُ بخلق جميع الأنام من شخص واحد، مُعَرِّفًا عباده كيف كان مُبْتَدَأُ إنشائه ذلك من النفـس الواحدة، ومنبههم بذلك علـى أن جميعهم بنو رجل واحد وأم واحـدة، وأن بعضهم من بعض، وأن حق بعضهم على بعض واجب وجوب حق الأخ على أخيه؛ لاجتماعهم فى النسـب إلى أب واحد وأم واحدة، وأن الذى يلزمهم من رعاية بعضهم حق بعض وَإِنْ بَعُدَ التلاقى فى النسب إلى الأب الجامع بينهم مِثْلُ الذى يلزمهم من ذلك فى النسب الأدنى، وعاطفًا بذلك بعضهم على بعض ليتناصفوا ولا يتظالموا، وليبذل القوى من نفسه للضعيف حقه بالمعروف على ما ألزمه الله له»[1].

(١) تفسـير الطبرى (٥١٤/٧)، تحقيق: الشـيخ/ أحمد شاكر، ط. مؤسسة الرسالة، أولى، سنة: ٢٠٠٠م.

ب – وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾ [سورة الحجرات]، أى خلقكم أيها الناس من أصل واحد، ذكر واحد وأنثى واحدة، آدم وحواء.

والآية وإن جاءت بصيغة الخبر لكنها اشتملت على أمر، فحواه: يا أيها الناس ذروا كل المعايير الفاسدة التى اعتبرتموها فى تشريف الإنسان وتعظيمه، واحتكموا إلى المعيار السليم الذى يتحقق به النفع لجميعكم، وهو التقوى، ويظهر ذلك جليًّا مما ورد فى سبب نزول هذه الآية؛ حيث ورد فى سبب نزولها ما يلى:

• أن رسول الله ﷺ أمر بَنِى بَيَاضَةَ أن يُزَوِّجُوا أَبَا هِنْدٍ امْرَأَةً منهم، فقالوا لرسول الله ﷺ: نُزَوِّجُ بَنَاتِنَا مَوَالِينَا ؟ فأنزل الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا﴾[1].

• وقيل: نزلت فى ثابت بن قيس بن شماس، وقوله فى الرجل الذى لم يَتَفَسَّحْ لَهُ: ابْنُ فُلاَنَةَ. فقال النبى ﷺ: «مَنِ الذَّاكِرُ فُلاَنَةَ ؟ «قال ثابت: أَنَا يَا رَسُولَ اللهِ. فقال النبى ﷺ: «انْظُرْ فِى وُجُوهِ الْقَوْمِ». فَنَظَرَ، فقال: «مَا رَأَيْتَ ؟» قال: رَأَيْتُ أَبْيَضَ وَأَسْوَدَ وَأَحْمَرَ. فقال: «فَإِنَّكَ لاَ تَفْضُلُهُمْ إِلاَّ بِالتَّقْوَى»[2].

---

(١) المراسيل لأبى داود (باب ما جاء فى تزويج الأكفاء)، رقم: ٢٣٠، الدر المنثور للسيوطى (٥٧٨/٧).

(٢) تفسير البغوى (٢٦٥/٤).

• وقيل: لما كان يوم فتح مكة أمر النبى ﷺ بلالاً حتى عَلاَ على ظهر الكعبة فَأَذَّنَ، فقال عتاب بن أسيد بن أبى العيص: الْحَمْدُ للهِ الَّذِى قَبَضَ أَبِى حَتَّى لاَ يَرَى هَذَا الْيَوْمَ. وقال الحارث بن هشام: مَا وَجَدَ مُحَمَّدٌ غَيْرَ هَذَا الْغُرَابِ الأَسْوَدِ مُؤَذِّنًا. وقال سهيل بن عمرو: إِنْ يُرِدِ اللهُ شَيْئًا يُغَيِّرْهُ[1].

ويُستفاد من مجموع تلك الحوادث الثلاث: أن رسول الله ﷺ لم يكن يترك موقفًا تربويًّا يستطيع من خلاله تربية أصحابه على احترام الآخر وعدم التعالى على عباد الله بالتفرقة بين الناس على أساس غير التقوى إلا واستفاد منه وأحسن توجيههم فيه إلى ما أراد.

فالتقوى هى الأمر المعتبر فى التقدير والاحترام فى المنظور الشرعى، وهى شىء كسبى يستطيع كل امرئ تحصيله، والتقوى هى الرحمة بالخلق والإحسان إليهم والعدالة بينهم وهى الخير.

وجماع الأمر أن التقوى سلوكٌ سَوِىٌّ خَيِّرٌ يَدْفَعُ صاحَبَه إلى رحمةِ المخلوقات جميعها والعطفِ عليهم والرفقِ بأحوالهم والصبرِ على أذاهم.

ويلاحظ فى الآية أن كلمة «أَكْرَمَكُمْ» جاءت بصيغة التفضيل، وهو ما يؤكد حديث الآية عن بيان المستوى؛ فهى تحدثنا عن المستوى الأعلى من التكريم والتشريف، ويُفهم من ذلك ضمنًا أن لمطلق الإنسان كرامة، وأن للمسلم كرامة أعلى، وأن للتقى الصالح كرامة أعلى. ولكن للكرامة الإنسانية حدًا لا يجوز أن يَبْخَس إنسانٌ منه شيئًا، وهو حد العدالة، وهو الحد الذى تتوفر بمقتضاه لمطلق الإنسان ضرورات العيش وتحسينات الاحترام والتقدير.

(١) تفسير البغوى (٤/٢٦٥).

فتكريم المجتمع الإسلامى للتقى والصالح والشريف والمسارع بالخيرات لا يؤثر أبدًا فى احترام غير المسلم أو المسلم العاصى، لدرجة أن المُجْرِم له حقوق إنسانية، وله قدرٌ من الاحترام يدعونا إلى مخاطبته ودعوته إلى ترك الجريمة والتوبة إلى الله من فعلها؛ فجنس بنى آدم مُكَرَّم، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾[سورة الإسراء].

فقد ذكرت الآية كرامة من الله الخالق تشمل جميع بنى آدم: مؤمنهم وكافرهم، أبيضهم وأسودهم، صغيرهم وكبيرهم، ذكرهم وأنثاهم، ولا يحق لأحد أن ينازع الإنسان هذه الكرامة أو يسلبه إياها؛ لأنها عطاء وجب له من خالقه.

وهذه الكرامة يتساوى فيها الجميع وتوجب العدالة بين الجميع فى الحقوق والواجبات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾[سورة المائدة]، ويلاحظ أن الآية الكريمة ذكرت العدالة والتقوى، فأمرت بالعدل كسبيل لتحصيل التقوى، أى الصلاح.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾﴾ [سورة النساء]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا

بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ﴾[سورة الحديد: الآية: ٢٥].

ومما سبق نخلص إلى أن العدل هو المقصد الأول من إرسال الرسل وإنزال الكتب إلى الناس.

٢ – حديث النبى ﷺ عن المساواة بين الناس والعدل بينهم:

وأما حديث السنة النبوية المطهرة عن تساوى الناس جميعًا فى أصل الخِلْقة، والحثّ على إقامة العدل بينهم، فقد ورد فى أحاديث كثيرة، ومنها:

(أ) عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَنْسَابَكُمْ هَذِهِ لَيْسَتْ بِسِبَابٍ عَلَى أَحَدٍ، وَإِنَّمَا أَنْتُمْ وَلَدُ آدَمَ، طَفُّ الصَّاعِ لَمْ تَمْلَئُوهُ، لَيْسَ لِأَحَدٍ فَضْلٌ إِلَّا بِالدِّينِ أَوْ عَمَلٍ صَالِحٍ، حَسْبُ الرَّجُلِ أَنْ يَكُونَ فَاحِشًا بَذِيًّا بَخِيلًا جَبَانًا»[1].

ومعنى «طَفُّ الصَّاعِ» أى الْمِكْيَالُ يَقْرُبُ أَنْ يَمْتَلِئَ فَلاَ يَفْعَلُ، وَالْمَعْنَى كُلُّكُمْ فِى الانْتِسَابِ إِلى أَبٍ وَاحِدٍ بِمَنْزِلَةٍ وَاحِدَةٍ فِى النَّقْصِ وَالتَّقَاصُرِ عَنْ غَايَةِ التَّمَامِ، وَشَبَّهَهُمْ فِى نُقْصَانِهِمْ بِالْكَيْلِ الَّذِى لَمْ يَبْلُغْ أَنْ يَمْلأَ الْمِكْيَالَ.

(ب) وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَطَبَ النَّاسَ يَوْمَ فَتْحِ مَكَّةَ فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ اللَّهَ قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ – كِبْرَهَا وَتَجَبُّرَهَا – وَتَعَاظُمَهَا بِآبَائِهَا، فَالنَّاسُ رَجُلاَنِ، رَجُلٌ بَرٌّ تَقِيٌّ كَرِيمٌ عَلَى اللَّهِ، وَفَاجِرٌ شَقِيٌّ هَيِّنٌ عَلَى اللَّهِ، وَالنَّاسُ بَنُو آدَمَ، وَخَلَقَ اللَّهُ آدَمَ مِنْ

(١) مسند أحمد (حديث عقبة بن عامر الجهنى ٢٨/٥٤٨)، رقم: (١٧٣١٣).

تُـرَاب، قَـالَ اللَّهُ ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾[1].

وَعَـنْ أَبِى هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُـولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدْ أَذْهَـبَ عَنْكُمْ عُبِّيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَفَخْرَهَا بِالآبَاءِ، مُؤْمِنٌ تَقِيٌّ وَفَاجِرٌ شَـقِيٌّ، أَنْتُمْ بَنُو آدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللَّهِ مِنَ الْجُعْلاَنِ الَّتِى تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتْنَ»[2].

(ج) وَعَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ قَالَ: «خَطَبَنَا رَسُـولُ اللهِ ﷺ فِى وَسَـطِ أَيَّامِ التَّشْرِيقِ خُطْبَةَ الْوَدَاعِ فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلاَ لاَ فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ وَلاَ لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلاَ لأَحْمَرَ عَلَى أَسْـوَدَ وَلاَ أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ إِلاَّ بِالتَّقْوَى إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ، أَلاَ هَلْ بَلَّغْتُ»[3].

(د) وعَنْ بريدة، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ جَعْفَرٌ مِنَ الْحَبَشَـةِ قَالَ لَهُ رَسُـولُ اللهِ ﷺ: « مَا أَعْجَبُ شَـيْءٍ رَأَيْتَ؟ «قَالَ: رَأَيْتُ امْرَأَةً عَلَى رَأْسِـهَا مِكْتَلٌ مِنْ طَعَامٍ، فَمَرَّ فَارِسٌ يَرْكُضُ فَأَذْرَاهُ فَجَعَلَتْ تَجْمَعُ طَعَامَهَا وَقَالَتْ: «وَيْلٌ لَكَ، يَوْمَ يَضَعُ الْمَلِكُ كُرْسِيَّهُ، فَيَأْخُذُ لِلْمَظْلُومِ مِنَ الظَّالِمِ»، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ تَصْدِيقًا لِقَوْلِهَا: «لَا قُدِّسَـت أُمَّةٌ»، أَوْ: «كَيْفَ قُدِّسَتْ؟ لَا يُؤْخَذُ لِضَعِيفِهَا

(١) سنن الترمذى (كتاب تفسير القرآن – باب من سورة الحجرات ٥/٣٨٩)، رقم (٣٢٧٠).

(٢) سنن أبى داود (كتاب الأدب – بَاب فِي التَّفَاخُرِ بِالأَحْسَابِ) ٤/٤٩٢)، رقم: (٥١١٨).

(٣) شـعب الإيمان للبيهقى (فصل، ومما يجب حفظ اللسان منه الفخر بالآباء، وخصوصًا بالجاهلية ٧/١٢٥)، رقم: (٤٧٧٤).

مِنْ شَدِيدِهَا، وَهُوَ غَيْرُ مُتَعْتَعٍ»[١]. أَيْ غَيْرُ وَاقِعٍ فِي الحَرَجِ وَالضِّيقِ.

(هـ) وعَنْ عَائِشَةَ رَضِى اللَّه عَنْهَا أَنَّ قُرَيْشًا أَهَمَّهُمْ شَأْنُ الْمَرْأَةِ الْمَخْزُومِيَّةِ الَّتِي سَرَقَتْ، فَقَالُوا: وَمَنْ يُكَلِّمُ فِيهَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ. فَقَالُوا: وَمَنْ يَجْتَرِئُ عَلَيْهِ إِلَّا أُسَامَةُ بْنُ زَيْدٍ حِبُّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. فَكَلَّمَهُ أُسَامَةُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَتَشْفَعُ فِي حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللَّهِ». ثُمَّ قَامَ فَاخْتَطَبَ ثُمَّ قَالَ: «إِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ قَبْلَكُمْ أَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَرَكُوهُ، وَإِذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أَقَامُوا عَلَيْهِ الْحَدَّ، وَايْمُ اللَّهِ لَوْ أَنَّ فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لَقَطَعْتُ يَدَهَا»[٢].

(و) عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضى الله عنه أَنَّ رَجُلاً تَقَاضَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَغْلَظَ لَهُ، فَهَمَّ أَصْحَابُهُ، فَقَالَ: «دَعُوهُ، فَإِنَّ لِصَاحِبِ الْحَقِّ مَقَالاً. وَاشْتَرُوا لَهُ بَعِيرًا، فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ». وَقَالُوا: لاَ نَجِدُ إِلاَّ أَفْضَلَ مِنْ سِنِّهِ. قَالَ: «اشْتَرُوهُ فَأَعْطُوهُ إِيَّاهُ، فَإِنَّ خَيْرَكُمْ أَحْسَنُكُمْ قَضَاءً»[٣].

(ز) وَعَنْ أُسَيْدِ بْنِ حُضَيْرٍ قَالَ: بَيْنَمَا هُوَ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ وَكَانَ فِيهِ مِزَاحٌ بَيْنَا يُضْحِكُهُمْ فَطَعَنَهُ النَّبِيُّ ﷺ فِي خَاصِرَتِهِ بِعُودٍ فَقَالَ: أَصْبِرْنِي. فَقَالَ: «اصْطَبِرْ». قَالَ: إِنَّ عَلَيْكَ قَمِيصًا وَلَيْسَ عَلَيَّ قَمِيصٌ. فَرَفَعَ النَّبِيُّ

(١) السنن الكبرى للبيهقى (كتاب آداب القاضى- بَابُ مَا يُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى أَنَّ الْقَضَاءَ وَسَائِرَ أَعْمَالِ الْوُلَاةِ مِمَّا يَكُونُ أَمْرًا بِمَعْرُوفٍ، أَوْ نَهْيًا عَنْ مُنْكَرٍ مِنْ فُرُوضِ الْكِفَايَاتِ ١٠/١٦٠)، رقم: (٢٠٢٠٣).

(٢) (متفق عليه)، حيث أخرجه البخارى (كتاب أحاديث الأنبياء – باب حدثنا أبو اليمان ٤/١٧٥)، رقم: (٣٤٧٥)، ومسلم (كتاب الحدود – باب قطع السارق الشريف وغيره والنهي عن الشفاعة فى الحدود ٥/١١٤)، رقم: (٤٥٠٥).

(٣) صحيح البخارى (كتاب الاستقراض وأداء الديون والحجر والتفليس – باب استقراض الإبل ٣/١١٦)، رقم (٢٣٩٠).

ﷺ عَنْ قَمِيصِهِ فَاحْتَضَنَهُ وَجَعَلَ يُقَبِّلُ كَشْحَهُ قَالَ: إِنَّمَا أَرَدْتُ هَذَا يَا رَسُولَ اللَّهِ[١].

(ح) وأَتَى أَبُو سُفْيَانَ عَلَى سَلْمَانَ وَصُهَيْبٍ وَبِلاَلٍ فِي نَفَرٍ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا أَخَذَتْ سُيُوفُ اللَّهِ مِنْ عُنُقِ عَدُوِّ اللَّهِ مَأْخَذَهَا. قَالَ: فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَتَقُولُونَ هَذَا لِشَيْخِ قُرَيْشٍ وَسَيِّدِهِمْ. فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ لَعَلَّكَ أَغْضَبْتَهُمْ، لَئِنْ كُنْتَ أَغْضَبْتَهُمْ لَقَدْ أَغْضَبْتَ رَبَّكَ». فَأَتَاهُمْ أَبُو بَكْرٍ، فَقَالَ: يَا إِخْوَتَاهْ، أَغْضَبْتُكُمْ ؟ قَالُوا: لاَ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ يَا أُخَى[٢].

ونجد فيما سبق ذكره من الأحاديث النبوية الشريفة المنيفة أن النبى ﷺ استثمر المواقف التربوية العديدة فى تعليم أصحابه احترام الإنسان وتقدير كرامته دون أدنى التفاتة إلى لونه أو جنسه.

وقد أثمرت تلك التربية الشريفة؛ حيث نجد الفاروق عمرُ بن الخطاب رضى الله عنه – وحتى بعد توليه إمارة المسلمين – حينما يَذْكُرُ بلالَ بن رباحٍ مؤذن رسول الله ﷺ يقول: أَبُو بَكْرٍ سَيِّدُنَا وَأَعْتَقَ سَيِّدَنَا. يَعْنِى بِلاَلاً[٣]، وذلك أن بلالا كان عبدا فى الجاهلية عند أمية ابن خلف فأسلم، فعذبه سيده حتى يرده عن الإسلام، فأبى، ولما اشتد به العذاب والتمثيل اشتراه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأعتقه.

---

(١) سنن أبى داود (كتاب الأدب – باب قبلة الجسد ٥/٤٣٩)، رقم: (٥١٨٢).

(٢) صحيح مسلم (كتاب فضائل الصحابة – باب من فضائل سلمان وصهيب وبلال رضى الله تعالى عنهم ٧/١٧٣)، رقم: (٦٥٦٨).

(٣) صحيح البخارى (كتاب فضائل الصحابة – باب مناقب بلال بن رباح مولى أبى بكر رضى الله عنهما ٥/٢٧)، رقم: (٣٧٥٤).

ومن مثل هذه المواقف العظيمة نتبيَّن أن عقيدة الإسلام وشعائره وعباداته قد حوَّلت العرب من أناس تمتلئ عقولهم بالتفرقة العنصرية والتمييز بين الناس على أسس خِلْقية وغير منطقية إلى جماعة من الناس تسودهم روح المحبة والإخاء، حتى أنهم استساغوا أن يعتلى بلال الحبشى ذو البشرة السوداء ظهر الكعبة فى فتح مكة؛ ليؤذن من فوقها.

ويؤخذ من صورة بلال رضى الله عنه وهو يرفع كلمة الحق (الأذان) من فوق الكعبة أن الإسلام جاء ليُعلى من قيمة المساواة والكرامة الإنسانية.

* * *

ثانيًا: المساواة فى الإنسانية بين الأحرار والعبيد:

جاء الإسلام إلى العالم وكان نظام الرِّق قائمًا منتشرًا فى كل بقاع الأرض، وهو نظام يعنى أن يستعبد إنسان إنسانًا آخر، فيصير الرجل أو المرأة الذى وقع عليه أو عليها الرق كالشىء الذى يجوز بيعه، وشراؤه، وتوريثه، وقد وصل الحال عند الرومان أنهم كانوا يدربون أبناءهم على الرمى بالسهام، ويجعلون العبيد هم الهدف، فعمل الإسلام على غلق المنافذ التى تؤدى إلى استرقاق الأحرار وجعلهم عبيدًا تحت إمرة أسيادهم، وهم لا يملكون ضرًا ولا نفعًا لأنفسهم، واتخذ لذلك صورًا للتضييق على نظام الرِّق حتى أغلقت أبوابه تمامًا، وتلك الصور يتمثل أهمها فيما يلى:

١- الرِّق ظاهرة اجتماعية مؤقتة:

لقد أقرَّ الإسلام وجود الرق كظاهرة اجتماعية وسياسية قائمة بالفعل